جهود عبد الوهاب المسيري
في بناء فقه التحيز
مفهوم التقدم نموذجًا

عماد الدّين عشماوي

باحث ماجستير، يعد حاليًا رسالة عن المشروع الحضاري المستقل
في فكر الدكتور عبد الوهاب المسيري، مصر

emad_ewes2@hotmail.com

[ملخص البحث]

تتناول هذه الدراسة، أثر التحيز في استخدام المفاهيم الغربية في المجتمعات العربية الإسلامية، من خلال تتبع كتابات عبد الوهاب المسيري عن التحيز، مع التطبيق على مفهوم التقدم. فإشكالية البحث الرئيسية، هي: كيف تؤثر المفاهيم في تشكيل النموذج المعرفي؟ وهل التحيز المفاهيمي يعد سببًا مباشرًا للتبعية؟ وكيف نتعامل مع إشكالية التحيز؟

وتفترض الدراسة، أن هناك ارتباطًا بين التصورات والتطورات الفكرية للباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وبين فهمه للتحيز وإدراكه. وأن بناء علم جديد للتعامل مع التحيز، هو المدخل الصحيح لتناول وحل هذه الإشكالية. وتحاول إبراز معالم فقه التحيز عند الدكتور المسيري، ومنهجه في بناء هذا العلم الجديد، وآثارذلك على تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية العربية الإسلامية، وتقييم جهوده في بناء علم عربي إسلامي للتحيز، والآفاق التي يفتحها هذا العلم، والجهود المطلوبة، ليصبح علم التحيز علمًا حقيقيًا، يمكنه أن يحرر أمتنا من تبعيتها المفاهيمية والإدراكية للمفاهيم والعلوم الغربية.

[Abstract]

This study deals with the impact of bias in the use of Western concepts in Arab and Islamic societies by following the writings of Abdel Wahab Al-Messiri on bias and applying it to the concept of progress. The main problem of research is: How do concepts affect the formation of the cognitive model? Is conceptual bias a direct cause of dependency? How do we deal with the problem of bias?

The study assumes that there is a correlation between the intellectual perceptions and developments of the researcher in the social and human sciences, and his understanding of bias and his awareness. The construction of a new science to deal with bias is the correct approach to address and solve this problem. And attempts to highlight the features of the jurisprudence of bias at Dr. Al-Messiri, and its methodology in building this new science, and its implications on the development of social sciences and humanism Arab Islamic, and evaluate his efforts in building Arab Islamic science of bias, and prospects opened by this science, It can free our nation from its conceptual and cognitive. subordination to Western concepts and sciences.

مقدّمة:

إشكالية المفاهيم من أهم الإشكاليات المنهجية التي تعرفها العلوم الاجتماعية والإنسانية. ذلك أن بداية العلوم هي تشكيل المفاهيم، فمن دون مفاهيم واضحة ومحددة يصعب أن نصل إلى وصف صحيح، أو تحليل يعتمد عليه، أو نقد يحقق تراكمًا ويضيف جديدًا.ولذلك شغلت قضايا بناء المفاهيم حيزًا كبيرًا في مناقشات العلوم الاجتماعية والإنسانية، حتى صارت همًّا معرفيًا وحضاريًا، وخصوصًا في المجتمعات التي ابتليت بالتبعية الفكرية للغرب الأوروبي.

وتزداد هذه الإشكالية تعقيدًا في المجتمعات التي في سبيلها للنهوض، بعيدًا عن التبعية للحضارة الغربية ومناهجها ومفاهيمها ورؤيتها للكون والإنسان، حيث تواجه بترسانة مفاهيم غربية جاهزة مهيمنة على مناهج البحث والتفكير، عليها أن تتعامل مع تحيزاتها بكثير من الحرص، وإيجاد السبل للتقليل من التحيزات الناتجة عن نشأتها وبيئتها الحضارية المختلفة، أو استبدال مفاهيم أخرى من جنس الرؤية الكونية لحضارات وثقافات هذه المجتمعات بها.

وقد انشغل كثير من المفكرين العرب بقضية التحيز في المفاهيم والمصطلحات وآثارها الخطيرة على مناهج البحث والتفكير في الأمة. ويأتي عبد الوهاب المسيري على رأس هؤلاء المفكرين الذين كرسوا جانبًا كبيرًا من جهادهم الفكري في سبيل تحرير هذه القضية، ووضعها في بؤرة اهتمام أهل الاختصاص في الأمة، والسعي لبلورة رؤية عربية إسلامية لها، سعيًا إلى علم عربي إسلامي يعالج هذه القضية.

المبحث الأول

المسيري وإشكالية التحيز للنموذج المعرفي الغربي

مفاهيم البحث:

المفهوم:

هو مجموعة الصفات والخصائص التي تحدد الموضوعات التي ينطبق عليها اللفظ تحديدًا يكفي لتمييزها عن الموضوعات الأخرى، وهو يتألف أيضًا من المعاني والمشاعر التي يستدعيها اللفظ في أذهان الناس[1]، وحتى تصير الفكرة

(١) صلاح، إسماعيل، توضيح المفاهيم: ضرورة معرفية، في: بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية (تحرير علي جمعة محمد)، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٧م)، (ص/ ٣١).

مفهومًا ينبغي أن تتوفر فيها شروطًا عدة أهمها أن يتمتع بالعمومية والدقة معًا، وأن يساعد في عملية المعرفة. فالمعرفة العلمية لا تقوم بدون المفهوم؛ فهو أداتها، وليس مجرد حصيلة لها[٢]. والمفهوم أشبه بوعاء معرفي جامع، يحمل من خصائص الكائن الحي أنه ذو هُوية كاملة[٣]. وهو الفضاء المعرفي لأية حضارة، يحدد سماتها التي تعطي لها ملامحها الذاتية، وهو الوعاء الحضاري الذي تتكثف فيه أبعادها الأساسية: اللغة والعقيدة والمنهج، تلك العناصر التي تحدد تصورات الإنسان لله والكون وللحياة.

فالمفاهيم تمثل لَبِنات النموذج المعرفي الأساسية. ومن ثمَّ فإن تبني مفهومٍ ما، أو جملة مفاهيم، يعني أننا نتبنى منظومة متكاملة من الأفكار، تسبب تحيزات في المنهج، وتنتج آثارًا كبيرة في مجال البحث والتطبيق.

النموذج المعرفي؟

النموذج هو بنية تصورية يجردها عقل الإنسان -بشكل واعٍ أو غير واعٍ- من كم هائل من العلاقات والتفاصيل والحقائق(الموضوعية)، فهو يستبعد بعضها بحسبانها غير دالة -من وجهة نظره- ويستبقي البعض الآخر، ثم يربط بينها وينسقها تنسيقًا خاصًا، ويجرد منها نمطًا عامًا[٤].

ولكل نموذج بُعْده المعرفي، أي؛ معاييره الداخلية التي تتكون من معتقدات وفروض ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية تشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق، وتزوده ببعده الغائي، وهي جوهر النموذج، والقيمة الحاكمة التي تحدد النموذج وضوابط السلوك، وحلال النموذج وحرامه، وما هو مطلق ونسبي من منظوره. فهي باختصار مسلمات النموذج الكلية، أو مرجعيته التي تجيب عن الأسئلة الكلية والنهائية[٥].

مفهوم التحيز

في اللغة:

تستخدم كلمة التحيز، في اللغة، في معنى: الانضمام والموافقة في الرأي، وتبنّي رؤية ما. فالتحيز، من حوز: وكل من ضم شيئًا إلى نفسه، فقد حازه واحتازه أيضًا.

---

(٢) موسى، وهبة، مفهوم التقدم، في: الموسوعة الفلسفية، (١٩٨٦)، (١/ ٧٦٨، ٧٦٩).

(٣) طه، جابر العلواني (تقديم)، بناء المفاهيم: مرجع سابق، (١/ ٨).

(٤) عبد الوهاب، المسيري، **رحلتي الفكرية: في البذور والجذور والثمر**، القاهرة، دار الشروق (٢٠٠٥م)، (ص/ ٣٦٠).

(٥) سوزان، حرفي، حوارات الدكتورعبد الوهاب المسيري، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (ص/ ٢٧٧).

وانحـاز القـوم، تركـوا مركزهـم إلى آخـر. وقولـه تعـالى: {أَوْ مُتَحَيِّـزًا إِلَى فِئَـةٍ}: [الأنفـال: ١٦]، معنـاه «أو مائـلًا إلى جماعـة مـن المسـلمين، وانحـاز الرجـل إلى القـوم بمعنـى تحيـز إليهـم»[٦].

التحيز في العلوم الاجتماعية والإنسانية:

مفهـوم «التحيـز»، في العلـوم الاجتماعيـة، يشـير إلى أن مناهـج وأدوات هـذه العلـوم ليسـت مطلقـة أو عامـة، كـما أن النتائـج التـي يتـم التوصـل إليهـا باسـتخدام تلـك المناهـج والأدوات ليسـت صالحـة لـكل زمـان ومـكان، ولكنَّهـا متحيـزة -مـن حيـث الصلاحيـة- في إطـار اجتماعـي، وسـياق زمـاني محدديـن[٧]. فـلا توجـد مناهـج «مجـردة بريئـة»، بـل هـي آليـات وإجـراءات تتضمـن تحيـزات محـددة وأعبـاء أيديولوجيـة[٨].

المسيري والتحيز المعرفي:

طرحـت مسـألة التحيـز المعـرفي نفسـها، عـلى الدكتـور المسـيري بعـد انتقالـه مـن دمنهـور إلى الإسـكندرية للدراسـة الجامعيـة، إذ لاحـظ التبايـن في العـادات والتقاليـد (والنـماذج الإدراكيـة) بـين المدينـة/ القريـة المصريـة مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى المدينـة الكوزموبوليتانيـة المصريـة، ومـع تعمـق قراءاتـه وأفـكاره، صـار التحيـز في قلـب شـواغله البحثيـة. وكان انتقالـه إلى الولايـات المتحـدة، حاسـمًا في تأكيـد ضرورة فهـم التحيـز ... ولعـب مؤتمـر دراسـة مسـتقبل المـشروع الحضـاري بعـد حـرب أكتوبـر (١٩٧٣م) نقطـة حاسـمة لديـه، في ضرورة التنبـه لخطـورة الإشـكالية، خاصـة مـع تبنـي كثيريـن ممـن حـضروا المؤتمـر في مـصر للتغريـب الكامـل.

ومـن خـلال مداولاتـه، مـع كثيريـن مـن أهـل الفكـر والثقافـة في مصر والعـالم العربي، خـلال الثمانينيـات والتسـعينيات مـن القـرن المـاضي، تبلـورت رؤيتـه الفكريـة لإشـكالية التحيـز، عـبر مؤتمريـن الأول في بدايـة التسـعينيات، والثـاني قبـل وفاتـه بعـام واحـد في عـام (٢٠٠٧م)، بالإضافـة لكتـاب «العـالم مـن منظـور غـربي»، الـذي طـور فيـه رؤيتـه لإشـكالية التحيـز، هـذا بخـلاف مـا نجـده متناثـرًا في كتاباتـه المتعـددة[٩].

---

(٦) عبـد الوهـاب، المسـيري، **إشـكالية التحيـز**، القاهـرة، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، (١٩٩٥م)، (ص/ ١٨).

(٧) إبراهيـم، البيومـي غانـم، **إشـكالية التحيـز في فكـر أربعـة مفكريـن مصريـين، في «إشـكالية التحيـز»**، مرجـع سـابق، (٢/ ٨٨٩).

(٨) سـوزان، حـرفي، **حـوارات الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري**، دمشـق، دار الفكـر، (٢٠٠٩م)، (ص/ ٢٣١).

(٩) عبـد الوهـاب، المسـيري، **رحلتـي الفكريـة: في البـذور والجـذور والثمـر**، القاهـرة، دار الـشروق، (٢٠٠٥م)، (ص/ ٤٤٤، ٤٥٤)

ينطلق الدكتور المسيري، بعد هذه الرحلة الطويلة التي امتدت لثلاثة عقود مع إشكالية التحيز، من رؤية تدرك أن «قضية التحيز» في المنهج والمصطلح هي إشكالية تواجه أي دارس في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكنَّها تواجه المثقف في العالم الثالث بحدة. فهو ينشأ في بيئة حضارية وثقافية، لها نماذجها الحضارية والمعرفية المختلفة، ولكنَّه مع هذا يجد نماذج أخرى تحاول أن تفرض نفسها على مجتمعه وعلى وجدانه وفكره[١٠].

وعلوم الإنسان على مستوى الممارسة -كما يؤكد المسيري- مهما بلغت من تجرد، تحوي تحيزات أصحابها الفلسفية، وهذه حقيقة معروفة بالنسبة للعلوم الاجتماعية ومقبولة بالنسبة لغالبية العاملين في هذا الحقل (ولكن هناك دائمًا المتطرفون من السلوكيين، وغيرهم ممن سقطوا في حمأة المادة وقوانين الحركة)... وأكثر التحيزات شيوعًا في بلادنا وفي أرجاء العالم، هو التحيز لهذا النموذج المعرفي الغربي[١١].

بل إنه يرى أن «التحيز، أيضًا، ينطبق على العلوم الطبيعية»، فثمة صياغات فلسفية (عقائدية) كامنة وراء التجارب الطبيعية، ووراء تصنيف وتفسير نتائجها. هذه العقائد، ترتبط تمامًا بالقوانين العلمية، رغم عدم وجود رابطة مادية ضرورية بين الواحد والآخر[١٢].

ينطلق الدكتور المسيري، بعد هذه الرحلة الطويلة التي امتدت لثلاثة عقود مع إشكالية التحيز، من رؤية تدرك أن «قضية التحيز» في المنهج والمصطلح هي إشكالية تواجه أي دارس في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكنَّها تواجه المثقف في العالم الثالث بحدة.

أنواع التحيز:

والتحيز، كما يؤكد المسيري، أنواع. فهناك التحيز لما يراه الإنسان على أنه الحق، وهذا هو الالتزام. كما أن التحيز قد يكون أيضًا للباطل. والتحيز قد يكون واعيًا واضحًا، أو غير واعٍ كامن، وهو الأهم والأخطر. وهناك تحيز

(١٠) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٩).

(١١) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ٤٨).

(١٢) المرجع السابق، (ص/ ٤٨).

داخل التحيز، أي حين يتبنى الباحث رؤية معينة محددة من داخل نموذج معرفي متكامل تحيزاته أكثر اتساعًا ... ويظهر في عملية التركيز على أفكار بعينها دون غيرها داخل المنظومة موضع البحث.

وهناك من يتحيز لعدد من الأفكار تنتمي إلى أنساق معرفية مختلفة متناقضة، ولكنَّه يتبناها كلها دون تمييز أو تفريق بسبب غياب الرؤية المعرفية العميقة. كما أن هناك تحيزًا جزئيًّا وآخر كلي. فالتحيز الجزئي هو تحيز لعنصر واحد، أو لشيء ما. أما التحيز الكلي فهو تحيز لمنظومة ما بكل تشابكاتها وتضميناتها. وهناك تحيز واقعنا المادي ضدنا، الذي يُعد من أهم التحيزات الجديدة التي ليس لها نظير في الحضارات السابقة[١٣].

التحيز المفاهيمي والتبعية:

يرى المسيري، أن «محاولة الإنسان الغربي فرضَ نماذجه على الشعوب غير الأوروبية، أو محاولة النخب في الشعوب غير الأوروبية التبني الكامل لهذا النموذج المعرفي بتحيزاته بوعي أو بدون وعي، يوقع هذه الشعوب والمجتمعات في مشاكل لا حصر لها، تنبع من عدم قدرة هذا «النموذج» على التفاعل مع هذا الواقع أو الإسهام في تفسيره أو تغييره، بل يؤدي تبنيها أحيانًا إلى تدميره»[١٤].

وتبني هذه النماذج بمفاهيمها كما هي دون تعديل أو نقد أو حتى وعي بتحيزها ... يخلُق ترابطًا اختياريًا بين الباحث وهذه الأفكار، أو تربة خصبة يمكن لهذه الأفكار أن تنمو فيها وتترعرع. لذا يجد الباحث، نفسه، متحيزًا لبعض الظواهر والأفكار، ويهمل أو يستبعد تمامًا البعض الآخر، ممَّا يقع خارج نطاق الاستعارات والنماذج الكامنة.

وتتعقد الأمور أكثر، في حالة تبني بعض المجتمعات والنخب «تحيزات الآخر ضدهم»، وليس فقط تحيزاته العائدة لطبيعة نموذجه المعرفي وسياقه الحضاري، ليبدأ في النظر لذاته عبر مرآة هذا الآخر ونموذجه المعرفي، ليقع

(١٣) المرجع السابق، (ص/ ١٩- ٢٢).

(١٤) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (ص/ ٩) بتصرف.

في التبعية الكاملة، ليبدأوا في ترديد ما يقولون، ويتبنون ما يستحدث هذا الآخر من علوم.

ولهذا يؤكد المسيري، أن المعرفة الإنسانية ليست مطلقة، وأننا يجب أن ندرك التحيزات الكامنة في أي معلومة أو مفهوم أو مصطلح نتعامل معه، وندرك الفرق بين التحيزات العربية والإسلامية وبين نظيرتها الغربية، ونبين طبيعة هذه التحيزات الغربية، ونبين أثرها على الإنسان والمجتمع. ولا مانع -بعد ذلك- من تبني بعض التحيزات الغربية مع الإيمان بأنها تحيزات، وليست مطلقات أو ثوابت إنسانية عامة[١٥].

تحيزات النموذج المعرفي الغربي:

يؤكد المسيري أن«النموذج المعرفي الغربي الحديث» -وهو نموذج عقلاني نفعي مادي- هو النموذج الكامن وراء التحيزات الكثيرة التي تواجهنا في حياتنا اليومية وأبحاثنا العلمية، وهو النموذج الكامن وراء معظم معارفنا وعلومنا وكثير من مواقفنا ...

وقد حصر المسيري تحيزات هذا النموذج فيما يلي[١٦]:

(١) التحيز للطبيعي/ المادي على حساب الإنساني.

(٢) التحيز للعام على الخاص.

(٣) التحيز للمحسوس والمحدود وما يقاس والكمي على حساب اللا محدود وما لا يقاس والكيفي.

(٤) التحيز للبسيط والواحدي والمتجانس على حساب المركب والتعددي وغير المتجانس.

(٥) التحيز للموضوعي على حساب الذاتي.

(٦) التحيز للمصطلحات العامة، الدقيقة، الوصفية، الكمية التي تنبذ المجاز وتبتعد عن التركيب.

(٧) التحيز للدقة البالغة في التعريفات والمطالبة بأن تكون جامعة مانعة واضحة.

(٨) التحيز ضد الغائية والخصوصية والانقطاع، والتحيز للاغائية والعمومية

(١٥) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(١٦) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، مرجع سابق، (ص/ ٣١٣).

والواحدية المادية والاستمرارية واللغة الرياضية بهدف تيسير التحكم الإمبريالي.

المبحث الثاني
المسيري وتأسيس فقه التحيز

العالم من منظور عربي إسلامي:

تبلور رؤية المسيري للتحيز، وتعمق إدراكه لمدى تركيبيته، وأن التحيزات المعرفية أمر كامن في نماذجنا الإدراكية، وهو ما أدى إلى استبطان النموذج الإدراكي المتحيز للغرب دون وعي، كان ولا بد أن يرى العالم من منظور عربي، لا من منظور غربي.

انطلق المسيري، من الإحساس الغامر لديه، بأن المناهج التي يتم استخدامها في الوقت الحاضر في العلوم العربية الإنسانية ليست محايدة تمامًا، لكنَّها تعبر عن مجموعة من القيم، التي تحدد مجال الرؤية ومسار البحث، وتقرر مسبقًا كثيرًا من النتائج، ليؤكد ضرورةَ بناء وتأسيس علم جديد لدراسة التحيز.

فلكل مجتمعٍ رؤيته المتميزة للكون، والتحيزات الناجمة عنها. ونحن، كوننا عربًا مسلمين، لنا رؤيتنا الكونية المتميزة وتحيزاتنا النابعة من واقعنا التاريخي والإنساني والوجودي، وتخلينا عن رؤيتنا وتحيزاتنا بوعي أو بغير وعي لصالح الرؤية والتحيزات الغربية، جعلنا ننظر لأنفسنا من وجهة نظر الغرب، وهو الأمر الذي أدى لتبعيتنا المعرفية والعملية، وجعلنا أسلس قيادًا معرفيًا وعمليًا له.

علم جديد لدراسة التحيز:

ليس الأمر عند المسيري، مجرد تفكيك لمقولات النموذج المعرفي الغربي وكشف تحيزاته، لكن كان الطموح هو تأسيس وبناء علم جديد للتعامل مع مفهوم التحيز، علم جديد له آلياته ومناهجه ومرجعيته، يتعامل مع قضايا التحيز، ويفتح باب الاجتهاد بخصوصها.

فالعرب المحدثون لم يضعوا أسس أي علوم على الإطلاق.. ونحن نردد وراء الغربيين ما يقولون، ونتبنى ما يستحدثون من علوم، أما أن نؤسس علومًا جديدة كي تتعامل مع الإشكاليات الخاصة بنا، فهذا ما لم يحدث في تاريخ الحضارة العربية الحديثة. كما أن الإحساس بالتهديد الواقع على هُوية الأمة -سواء كانت قومية أو دينية- بسبب تبنيها لنماذج ورؤى الآخر،

دون إدراك عميق أحيانًا للتضمينات المعرفية لهذه النماذج، يجعل القيام بهذه المهمة فرض الوقت[١٧].

> **فالعرب المحدثون لم يضعوا أسس أي علوم على الإطلاق.. ونحن نردد وراء الغربيين ما يقولون، ونتبنى ما يستحدثون من علوم، أما أن نؤسس علومًا جديدة كي تتعامل مع الإشكاليات الخاصة بنا.**

فقه التحيز:

اقترح المسيري، تأسيس علم جديد، أطلق عليه «**فقه التحيز**»، يركز على قضية التحيز في النماذج المعرفية، الناتجة عن مجموعة من القيم الكامنة المستترة في النماذج المعرفية، والوسائل والمناهج البحثية التي توجه الباحث دون أن يشعر بها، وإن شعر بها وجدها لصيقة بالمنهج لدرجة يصعب التخلص منها، والتي تسلب الباحث كثيرًا من حريته وتحد من حركته ومجال رؤيته[١٨].

ينطلق فقه التحيز، من نقطة ذاتية تتعلق بإفصاح الباحث عن تحيزاته، الناتجة عن النموذج المعرفي الذي يتبناه بشكل أكثر وضوحًا وتحديدًا، وتجميعها، للتعرف على جوانب التحيز في المنهج وأدواته ومفاهيمه ومصطلحاته، ليصل إلى تعريف إشكالية التحيز في المنهج، واكتشاف بعض سماته وآلياته، وتطوير حلول قد تؤدي إلى ظهور نموذج معرفي بديل، أو ما يسميه المسيري «فقه التحيز».

والمسيري يستخدم كلمة «فقه» بدلًا من «علم»، مؤكدًا أن الكلمة الأولى تسترجع البعد الاجتهادي والاحتمالي والإبداعي للمعرفة، على عكس كلمة «علم» التي تؤكد جوانب الدقة واليقينية والحيادية والنهائية[١٩].

وهذا الفقه هو محاولة لفتح باب الاجتهاد بخصوص الحضارة الغربية ونماذجها المعرفية، وليس هذا وحسب، وإنَّما سيعبّر عن تحيزاتنا العربية الإسلامية، لتطوير وسائل أكثر تركيبًا لدراسة المجتمعات العربية الإسلامية والظواهر الخاصة بنماذج المنطقة العربية الإسلامية،

(١٧) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ١٠).

(١٨) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ١٠).

(١٩) المرجع سابق، (ص/ ١٠).

وإثراء النماذج السائدة وتوسيع حدودها والامتزاج بها، بحيث تتحول من نماذج غربية تستند إلى معطيات المجتمع الغربي الحديث، إلى نماذج عالمية إنسانية تستند إلى معرفة وثيقة مركبة بكل التشكيلات الحضارية، وبكل خصوصياتها وتعرجاتها ونتوءاتها، وتحاول أن تصل إلى أعلى درجات التجريد وأدق درجات التخصص[٢٠].

أهداف الفقه الجديد:

يهدف هذا الفقه الجديد -بحسب ما يرى المسيري إلى:

(١) اكتشاف بعض التحيزات (الغربية أساسًا) الكامنة في مصطلحاتنا ومناهجنا وأدواتنا البحثية وقيمنا المعرفية؛ لأنَّها أكثر التحيزات شيوعًا وخطورة، ولأن الكثيرين يرون القيم الغربية قيمًا عالمية، ويتبنونها دون إدراك لخصوصيتها الغربية، منكرين بذلك خصوصيتهم العربية الإسلامية، ولكن دون إهمال التحيزات داخل حضارتنا، واقتراح مصطلحات ومناهج وأدوات وقيم معرفية بديلة تتسم بقسط أكبر من الاستقلال وربما الحيادية[٢١].

(٢) إدخال الذات والخبرة الشخصية في عملية الإدراك والإنصات للوجدان، لا إسكاته، والبعد عن الموضوعية المتلقية في التعامل الظواهر المدروسة.

(٣) التحرر من الحقائق التي تدعي أنها صلبة ومطلقة، وندرك ما يقوم به البعض من لَيّ الحقائق بوسائل مختلفة لتوظيفها في خدمة وجهة نظر معينة، من خلال نموذج معلوماتي متحيز[٢٢].

(٤) فقه التحيز يحمينا من السقوط في العدمية الفلسفية، وإعلان انتهاء العلم (والتاريخ)؛ لأنَّه ينطلق من رؤيةٍ تؤمن آليات تجاوز التحيز، يواكبها صياغة نموذج معرفي بديل، يستفيد من العلم الغربي، وكل العلوم والتجارب التاريخية، وينطلق من تراثنا، حتى يمكن توليد معارف وعلوم جديدة نحقق بها إمكانياتنا الإبداعية[٢٣].

(٥) تأكيد الطبيعة الثورية الإبداعية لرفض التحيز، وما تؤدي إليه من رؤية جديدة للذات والآخر، وتعريف الباحث والقارئ بنفسه عملية الانتقال من

(٢٠) المرجع السابق، (ص/ ١٢).

(٢١) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ١٠).

(٢٢) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ١٠).

(٢٣) المرجع السابق، (ص/ ١٢).

النمـوذج المرفـوض (المتحيـز) إلى النمـوذج الجديـد (المسـتقل)[٢٤].

(٦) إثـراء الفكـر العـربي الحديـث، لا برؤيـة جديـدة وحسـب، إنَّمـا أيضًـا بمنهـج جديـد ... حيـث سـيتمكن الباحـث والقـارئ أن يسـتخلص بعـض القواعـد التـي تمكنـه مـن اكتشـاف مواطـن التحيـز في مناهـج وأدوات وقيـم يواجهها في بحثـه العلمـي أو حياتـه العمليـة[٢٥].

فهم عملية التحيز:

التحيـز، مرتبـطٌ تمـام الارتبـاط برؤيـة الكـون، فرؤيـة الكون هـي القاعدة الأساسـية التـي تولـد منهـا كل المفاهيـم والأفـكار والمصطلحـات التـي تكـون النمـوذج المعـرفي الـذي يعالـج بـه الباحـث قضايا مجتمعـه[٢٦].

وفي ضـوء رؤيـة الكـون هـذه، يمكننـا أن نفهـم التحيـز، في ضـوء قاعدتـين أساسـيتين، حتـى نـدرك أبعـاده، ونلـم بجوانبـه الظاهرة والكامنـة بأنواعها المختلفـة، ومـدى تأثيراتها في توجهاتنـا ورؤانـا الفكريـة.

(٢٤) المرجع السابق، (ص/ ١٣، ١٤).

(٢٥) عبـد الوهـاب، المسـيري، **إشـكالية التحيـز**، القاهـرة، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٦٠).

(٢٦) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ٦٠).

وهاتان القاعدتان هما:

القاعدة الأولى- حتمية التحيز:

تكمـن نقطـة البـدء الصحيحـة في فهـم التحيـز مـن إدراك كونـه أمـرًا حتميًـا، ملاصقًا للإنسـان. فـكل مـا هـو إنسـاني يحـوي عـلى قـدر مـن التفـرد والذاتيـة، ومـن ثـم التحيـز. فـ«الإيمـان» بالتحيـز هـو رفض لفكرة بسـاطة الواقـع، ولآليـة الإدراك وسـلبيته، ولفكـرة القانـون العـام، وهـو تأكيد بأن عقل الإنسـان مبـدع وفعـال، وأن دوافعه مركبـة، وهو دفاع عـن مركزيـة الإنسـان ضـد الفلسـفات المادية الطفوليـة التـي لا تـرضى إلا بوحـدة الطبيعـة وواحديتهـا، ولا تقنـع إلا بعـالم أملـس[٢٧].

القاعدة الثانية- التحيز ليس بنهائي:

يؤكـد المسـيري أن التحيز هـو حتمية التفرد والاختيـار الإنسـاني.. وهـذه السـمة المزدوجـة للتحيـز هـي تعبـير عـن تلـك الثنائيـات التي لا يمكـن اختزالهـا أو تصفيتها أو تسـويتها.ومن ثم يكـون التحيـز حتميًّا وليـس نهائيًّا: حتمي، فلا يمكـن تجـاوزه، وليـس نهائيًـا، فهـو ليـس نهاية المطاف، فالنهائي هو الإنسـانية المشتركة (والقيم الأخلاقيـة) التـي تسـبق أي تنـوع أو تحيـز[٢٨].

(٢٧) المرجع السابق، (ص/ ١٤).

(٢٨) المرجع السابق، (ص/ ١٤).

منطلقات فقه التحيز:

جوهر فقه التحيز هو استعادة ثنائية الإنسان والطبيعة، واسترجاع الإنسان ككائن مركب لا يمكن أن يرد إلى العالم الطبيعي؛ لذا فإن أهم منطلقات هذا الفقه الجديد، كما يراها المسيري هي[٢٩]:

(١) استناده إلى يقين ليس بكامل واجتهاد مستمر:

ففقه التحيز يمتاز بنماذجه الفضفاضة، ولا يعرف القوانين الصارمة، ولا الإجابات النهائية الموضوعية الكاملة، إنَّما هو نموذج اجتهادي، يطمح إلى التوصل إلى قدر معقول من المعرفة، يسمح بتفسير قدر كبير من الواقع دون تفسيره كله، ويستخدم مصطلحات «أكثر تفسيرية» و«أقل تفسيرية» بدلًا من موضوعي وذاتي، فالتحيزات كامنة في المعرفة، وما يقوله المرء ليس عالميًا أو نهائيًا.

(٢) لا يوجد مجال للتحكم الكامل في الواقع:

وفقه التحيز يحمينا من الوقوع في التحكم الإمبريالي في العالم، وإعادة الاعتبار لكل شيء في الوجود، وإدراك معنى الاستخلاف في الأرض.

(٣) لا اختزال ولا تصفية للثنائيات:

فقه التحيز يعيد الثنائيات إلى الواقع، وينظر للعالم ككل متماسك، لا كل عضوي مصمت، محاولًا الوصول إلى خصوصية كل ظاهرة وتنوعها ومنحناها الخاص وشخصيتها، دون أن يهمل عموميتها.

آليات تجاوز التحيز:

يرى المسيري أنه يمكن تجريد التحيز من معانيه السلبية، وأن نكتشف معانيه الإيجابية. فالنظريات التي تنكر التحيز هي ذاتها متحيزة، فهي ترى الواقع باعتباره كيانًا ماديًا بسيطًا قابلًا للتفسير في كليته من خلال قوانين الطبيعة المادية الصارمة، والعقل قاصر... في حين أن الواقع متنوع ومركب، والعقل ليس قاصرًا، لكنَّه فعال، يبقي ويستبعد ويجرد ويفكك ويركب ويصحح ويضخم ويهمش، ويصوغ نماذج معرفية يدرك العالم من خلالها[٣٠].

من هذا المنطلق يؤكد المسيري، أن **أولى آليات التجاوز** هي إدراك حتمية

(٢٩) عبد الوهاب، المسيري، **العالم من منظور غربي**، القاهرة، دار الهلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ٢٨٨- ٣٠٥).

(٣٠) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٧).

التحيـز، وكونـه ملاصقًـا للإنسـان. فـكل مـا هـو إنسـاني يحـوي عـلى قـدر مـن التفـرد والذاتيـة، ومـن ثـم التحيـز. فـ«الإيمـان بالتحيـز هـو رفـض لفكـرة بسـاطة الواقـع، ولآليـة الإدراك وسـلبيته، ولفكـرة القانـون العـام، وهـو تأكيـد بـأن عقـل الإنسـان مبدع وفعـال، وأن دوافعـه مركبـة، وهـو دفـاع عـن مركزيـة الإنسـان ضـد الفلسـفات الماديـة الطفوليـة التـي لا تـرضى إلا بوحـدة الطبيعـة وواحديتهـا، ولا تقنـع إلا بعـالم أملـس»[٣١].

> **يرى المسيري أنه يمكن تجريد التحيز من معانيه السلبية، وأن نكتشف معانيه الإيجابية. فالنظريات التي تنكر التحيز هي ذاتها متحيزة، فهي ترى الواقع باعتباره كيانًا ماديًا بسيطًا قابلًا للتفسير في كليته من خلال قوانين الطبيعة المادية الصارمة، والعقل قاصر.**

والآليـة الثانيـة، أن يكـون نقدنـا للحضارة الغربيـة نقـدًا كليًـا، وألا يقف جهدنـا النظري عنـد المسـتوى الجـزئي أو التطبيقـي، مـع بقاء البنـاء عـلى حالـه ... لكـن يجـب أن تكـون لدينـا نظـرة شـاملة وعميقـة، تصـدر عـن الإيمـان بأنـه لا يوجـد مسـار طبيعـي وعالمـي وحتمـي واحـد، وأن هنـاك إمكانيـة لمسـار آخـر وتوصـل إلى نمـوذج آخـر يسـتند إلى منطلقـات أخـرى ويـدور في أُطر مختلفـة[٣٢].

ثـم يتبـع ذلـك توضيـح نقائـص النمـوذج المعـرفي الغـربي، فهـو:

(١) نمـوذج معـاد للإنسـان، وينكـر عليـه أي خصوصيـة، وينكـر أن عقلـه مبـدع وفعال ومـن ثـم ينفـي مركزيتـه في الكـون[٣٣].

(٢) المـشروع المعـرفي الغـربي، كافـر بالمعنـى العميـق للكلمـة، فهـو ليـس كافـرًا بالإلـه وحسـب وإنَّمـا هـو كافـر بالإنسـان أيضًـا إذ يعلـن مـوت الإلـه، ثـم مـوت الإنسـان ككائـن متميـز عـن الطبيعـة، وينزع القداسـة عـن كل شيء، وينكـر المعنـى[٣٤].

(٣) وهـو مشروع مسـتحيل مـن الناحيتين المعرفيـة والعمليـة، فهـو مسـتحيل معرفيًـا، لأنَّـه يفـترض بيقـين متعصـب أن رقعـة المجهـول سـتتناقص بالتدريـج وسـتتزايد رقعـة المعلـوم، وأن تحكـم الإنسـان في الواقع

(٣١) سـوزان، حـرفي، **حـوارات الدكتـور عبـد الوهـاب المسـيري**، مرجـع سـابق، (ص/ ٣٢٧).

(٣٢) عبـد الوهـاب، المسـيري، **العـالم مـن منظـور غـربي**، القاهـرة، دار الهـلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣٣) عبـد الوهـاب، المسـيري، **إشـكالية التحيـز**، القاهـرة، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٤٩).

(٣٤) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ٥٠).

سيصبح كاملًا، وهو افتراض أقل ما يوصف به أنه طفولي وساذج، كما أنه يحاول الوصول إلى مستويات من التعميم لا تبررها درجة المعرفة عند من قاموا بالتعميم. أما من الناحية العملية، فهذا المشروع المبني على التنمية والتحكم في المصادر وتعظيم الإنتاج والاستهلاك، في حين أن التقدم المستمر اللا نهائي قد ارتطم بحائط كوني صلب متعلق بالموارد الطبيعية فلا يمكن محاكاته دون هلاك الكوكب كله[٣٥].

وثالث هذه الآليات التأكيد على نسبية الغرب، فإذا كان الغرب قد تحول إلى مطلق، فإنَّه يجب أن يستعيد نسبيته وتاريخيته وزمنيته، وإذا كان يشغل المركز فإنَّه يجب أن يصبح مرة أخرى عنصرًا واحدًا ضمن عناصر أخرى تكون عالم الإنسان، وإذا كان يعتبر نفسه عالميًا وعامًا فإنَّه لا بد أن نبين خصوصيته ومحليته؛ أي إن الغرب يجب أن يصبح غريبًا مرة أخرى لا عالميًا، وذلك من خلال استعادة المنظور العالمي والتاريخي المقارن بحيث يصبح التشكيل الحضاري الغربي تشكيلًا حضاريًا واحدًا له خصوصيته وسماته وتاريخه، ويعني هذا محاولة الوصول إلى رؤية عالمية حقة من خلال مقارنة البنى الحضارية والتجارب التاريخية المختلفة والنماذج المتعددة التي تعامل الإنسان من خلالها مع العالم، فأبدع أشكالًا حضارية خاصة متنوعة لها قوانينها الداخلية، وتنبع إنسانيتها من خصوصيتها، لا من خلال اتساقها مع قانون عالمي عام وهمي، هو في نهاية الأمر «قانون غربي»[٣٦].

ورابع هذه الآليات، هي ضرورة الانفتاح على العالم والاستفادة من التراث الحضاري والثقافي والفكري للحضارات العريقة المختلفة التي تملك زادًا معرفيًا غزيرًا في فهم الإنسان والمجتمع والطبيعة، فالانفتاح على العالم سيؤدي إلى إصلاح التشوه المعرفي الذي لحق بنا بعد سنوات طويلة من الاستعمار الغربي تم فيها ترسيخ فكرة مركزية الغرب[٣٧].

ويمكن توضيح منهج المسيري في تجاوز التحيز في الخطوات التالية:

(١) نقطة البداية هي نقطة خاصة بالباحث ذاته، إذ يجب أن يثق بنفسه وفي

(٣٥) المرجع السابق، (ص/ ٥٠، ٥١).

(٣٦) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ٥٥- ٥٩).

(٣٧) عبد الوهاب، المسيري، **العالم من منظور غربي**، القاهرة، دار الهلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ٢٨٤- ٢٨٦).

مقدرته على الإبداع، بمعنى القدرة على ربط التفاصيل بعضها ببعض وتجريد النماذج، وأن ينفض عن نفسه غبار الهزيمة، والنماذج الدخيلة التي هيمنت علينا، وأن يعبر عن مشاعره ووجدانه ورؤاه وتصوراته. وفي نفس الوقت رفض تمجيد الذات الحضارية والاعتراف بفشلنا في تطوير حداثة عربية إسلامية ندخل بها القرن الحادي والعشرين. وإدراك أثر الإمبريالية التي حطمت كثيرًا من أبنيتنا الحضارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ونهبت بلادنا وقدرتنا على تجاوز هذا كله، وإدراك أن ضعفنا الداخلي هو الذي هيأ للإمبريالية أن تحتلنا وتستعمرنا. وأن الفقه الجديد للتحيز ليس عودة للوراء، وإنَّما هو تأكيد أن النماذج الجاهزة والمستوردة لا تصلح لنا، ولا بد من اجتهاد جديد لبناء نموذجنا المعرفي الخاص يناسب سياقنا الحضاري والمعرفي[٣٨].

(٢) أن يثق الباحث، في جهده، ويدرك تمامًا أنه إن توصل إلى نتائج تختلف عما هو سائد فلا يشك فيها، وإنَّما عليه أن يختبرها المرة تلو المرة ليتأكد من مقدرتها التفسيرية، فإن تأكد من أن النتائج التي توصل لها تتمتع بمقدرة تفسيرية أعلى ممَّا هو سائد، فعليه أن يتمسك بها ويدافع عنها باستماتة؛ فإن هذه هي الطريقة الوحيدة لتطوير العلم[٣٩].

(٣) إدراك حقيقة التحيز، فالإنسان بإدراكه للتحيز يأخذ حذره منه، بل إنه يدرك التحيزات الكامنة في رؤيته وطريقة إدراكه هو ذاته، فيحاول أن يتجاوز السلبي منها ويوسع من نطاقها الإيجابي. وإدراك الباحث للتحيز، وإدراكه لإمكانية اكتشافه، سيجعله يبحث عن مناهج جديدة لتناول الواقع[٤٠].

(٤) إدراك أن السمات الواضحة للمقولات التحليلية الغربية، تظل على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولا تصل أبدًا إلى المستوى المعرفي الذي يتعامل مع المسلمات الكامنة في الفكر، والتي تشكل إجابة عن الأسئلة النهائية التي تواجه الإنسان في الكون[٤١].

---

(٣٨) عبد الوهاب، المسيري، **العالم من منظور غربي**، القاهرة، دار الهلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ٢٨٤- ٢٨٦).

(٣٩) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٥٩).

(٤٠) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٨).

(٤١) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٤٩).

(٥) إدراك أن البعد المعرفي مرتبط بالبعد الديني، الذي هو شكل من أشكال البعد المعرفي؛ إذ إنه ينصرف إلى بعض الأسئلة النهائية، مثل رؤية الإنسان للكون ولنفسه والهدف من وجوده، ولذا لا بد من فحص العلاقات الضمنية والصريحة بين المفاهيم العلمية والعقائد والمسلمات الكامنة فيها[٤٢].

(٦) الاستفادة من اللغة الإنسانية، وقدرتها على مساعدتنا في تجاوز أشكال كثيرة من التحيز، وعلى بناء نماذج معرفية قد تكون نتاج تجربتنا الحضارية الخاصة، كما تساعدنا في التعامل مع أنفسنا ومع واقعنا، ومع الآخر الذي يمكنه من خلال الاجتهاد أن يدرك خصوصية نماذجنا الحضارية والإنسانية المشتركة الكامنة وراءها.

(٧) حينما تواجهنا ظاهرة غربية (أو أي ظاهرة) سنحاول معرفة ظروفها التاريخية والاجتماعية، فأي ظاهرة لا توجد فجأة، بل إن ثمة مركبًا من الأسباب أدى إليها، وهي جزء من نسيج مجتمعي حضاري ترك فيها تحيزاته توجهاته وآلامه وأحزانه ورؤاه وعنصريته. ومن شأن هذه الدراسة، تقويم أسس المعرفة الغربية والتأكيد على خصوصيتها ومحدوديتها ونسبيتها[٤٣].

(٨) إلغاء الاعتماد على الترجمة لأسماء الأشياء ومعانيها، وبدلًا من ذلك لا بد من أن ننظر إلى أي ظاهرة في سياقها، بحيث ندرس المصطلح الغربي الذي يشير إليها في سياقه الأصلي دراسة جيدة، ونعرف مدلولاته تمام المعرفة، ونحاول توليد مصطلح من داخل المعجم العربي بحيث لا يكون ترجمة حرفية، وإنَّما تسمية للظاهرة من وجهة نظرنا[٤٤].

(٩) إن ترجمنا مصطلحًا ما، ووجدنا أنه لا يتفق مع إدراكنا لطبيعة الظاهرة التي يشير إليها، فربما يمكننا أن نترجمه حرفيًا ونتحفظ عليه، أو نضع مصطلحًا جديدًا يوضح المفهوم الكامن وراءه ... إن فعلنا ذلك نكون قد أدركنا الواقع وسمينا الظواهر حسب هذا الإدراك، فمن يسمِّ الأشياء فإنَّه يكون قد قطع شوطًا طويلًا في محاولة التعامل معها بما في ذلك التصدي لها[٤٥].

---

(٤٢) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٩).

(٤٣) المرجع السابق، (ص/ ٥٦).

(٤٤) المرجع السابق، (ص/ ٣٥٠).

(٤٥) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٥٠).

(١٠) الانتباه لظاهرة المصطلح الغائب. فهناك جوانب في الواقع لم يرصدها أحد من علماء الاجتماع والتاريخ الغربيين، ومن ثم لم يسمّها وهو لم يرصدها، ولم يسمها لأسباب عملية واضحة، إما خشية من الفضيحة، أو بسبب قصوره المعرفي الناجم عن وضعه التاريخي أو مصالحه الاقتصادية، أو مجرد قصوره الإنساني، ومن ثم فالذي يحدث أن هذا المصطلح يظل غائبًا عنا.

هناك جوانب في الواقع لم يرصدها أحد من علماء الاجتماع والتاريخ الغربيين، ومن ثم لم يسمّها وهو لم يرصدها، ولم يسمها لأسباب عملية واضحة، إما خشية من الفضيحة، أو بسبب قصوره المعرفي الناجم عن وضعه التاريخي أو مصالحه الاقتصادية، أو مجرد قصوره الإنساني، ومن ثم فالذي يحدث أن هذا المصطلح يظل غائبًا عنا.

وخاصة أننا حينما نستورد ونترجم لا نترجم مصطلحًا هنا وكلمة هناك، وإنَّما نترجم هيكلًا متماسكًا من المصطلحات، ممَّا يعني أن عملية الرصد للواقع ستتم في إطار المصطلحات الموجودة بالفعل وحسب، أما جوانب الواقع التي تندرج تحت إطار المصطلح الغائب فلا يرصدها أحد، وإن رُصدت فهي تهمش على الفور؛ إذ إنها تظل واقعة عرضية لا ظاهرة متكررة[٤٦].

(١١) إدراك أن التحيز للدقة البالغة في التعريفات، والمطالبة بأن تكون جامعة مانعة واضحة، هو في التحليل الأخير تحيز للمصطلحات الغربية. فالمشروع المعرفي الغربي الحديث هو المشروع الوحيد في العالم الذي اكتملت ملامحه وأطره ومنهجياته وآلياته، وهو مشروع تسانده مجموعة ضخمة من المؤسسات البحثية والثقافية والسياسية والعسكرية التي يمكنها توثيقُ أي شيء وإشاعةُ أي مفاهيم وحجبُ أي معلومات أو تهميشها. هذا في مقابل المشاريع المعرفية الأخرى (بما في ذلك المشروع المعرفي الإسلامي) فهي لا تزال غضة في طور التكوين، كما أن ملامحها النظرية العامة لم تكتمل بعد ولم تتبلور رغم وجود الأطر العامة.

ولذلك، فإن الإصرار على الدقة البالغة والوضوح الكامل، وعلى أن تكون الأطروحات

(٤٦) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٤٤).

والتعريفات مكتملة سيؤدي إلى تبني المصطلحات والمفاهيم والنماذج الغربية، قبِل الإنسانُ أم أبى. ولذا لا بد من القبول بقدر من الإبهام، مع التحفظ التالي، وهو أن الإبهام غير الغموض، كما أن التركيب غير التناقض. ولا بد من قبول التعريفات الإجرائية والافتراضات التفسيرية المبدئية إلى أن تترابط كل هذه الأمور وتكتمل المنظومة المعرفية وهيكلها المصطلحي. فلكل علم اصطلاحاته، والاصطلاح في العلم هو اتفاق جماعة من الناس المتخصصين في مجال واحد على مدلول كلمة أو رقم أو إشارة أو مفهوم، وذلك يتم عادةً نتيجة تراكم معرفي وحضاري وممارسات فكرية تتم في إطار معين لمدة من الزمن، ثم يتبع ذلك محاولة لتقنين هذه المعرفة[٤٧].

(١٢) الخطوة العاشرة، تتعلق بجماعية العمل ومؤسسيته، لإنجاز تراكم حقيقي في مجال تجاوز التحيز، عبر اكتشاف النموذج الكامن وراء المفاهيم والمصطلحات المتبناة من النموذج الغربي، وهي عملية لا يمكن أن تكون عملية فردية، وإنَّما عملية جماعية متكاملة، تتم على عدة مستويات من خلال الرصد والتصنيف والنقد التراكمي، حتى تتحدد الأنماط العامة الجديدة التي يتم مراكمة المعلومات في إطارها والتي تكشف عن تحيزات النموذج الآخر[٤٨].

خطوات الفقه المقترح[٤٩]:

عندما نقوم بدراسة التحيز، في مجالٍ ما، أو تتبع جوانب التحيز في مفهوم أو مصطلح ما علينا اتباع الخطوات التالية:

(١) دراسة مشكلة التحيز في حقل التخصص أو مجال البحث المطلوب معرفة مدى تحيزه، مع عدم إهمال المشاعر والوجدان والتصورات الخاصة التي كوّنها الباحث عن المفهوم منذ الصغر.

(٢) استعراض النموذج المعرفي المتحيز، وإظهار مدى قصوره سواء في تأكيد بعض العناصر على حساب العناصر الأخرى، أو في استبعاد عناصر مركزية، نظرًا لعدم اهتمام النموذج بها أو عدم إيمانه بها.

(٣) تعريف النموذج المعرفي الجديد «فقه التحيز»، وتطبيقه على الحالة

(٤٧) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (/ ٣٣٩).

(٤٨) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٨).

(٤٩) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ١٣).

موضع الدراسة، واقتراحاته الجديدة التي يضيفها في مجال الدراسة.

(٤) عقد مقارنة بين القدرات التفسيرية والتنبؤية للنموذجين المعرفيين، لمعرفة أيهما أكثر أو أقل تفسيرية في الحالة موضع الدراسة.

ثمرة فقه التحيز[٥٠]:

بعد الجهد التفكيكي النقدي والإبداعي؛ أي بعد اكتشاف النموذج المعرفي الغربي وتفكيكه وتوضيح هويته، وبعد إعادة تركيبه، وبعد زيادة المقدرة التوليدية للنموذج المعرفي الإسلامي، وبعد تحول الغرب من مركز مطلق إلى مجرد تشكيل حضاري ضمن تشكيلات أخرى كثيرة، سننظر إلى الغرب بدون قلق؛ إذ ليس علينا قبوله بخيره وشره ... وإنَّما يمكننا دراسته كمتتالية حضارية تتسم بما تتسم به من سلبيات وإيجابيات.

وسنتمكن من الانفتاح الحقيقي عليه بطريقة نقدية إبداعية، تمامًا مثل انفتاحنا على الحضارات الأخرى، نأخذ ثمرات العلم الإنساني، بما في ذلك العلم الغربي، فنفصل العنصر أو الآلية التي تم نقلها عن المنظومة التي تنتمي إليها ثم نستوعبها في منظومتنا بعد أن نكيّفها مع قِيمنا ورؤيتنا للكون.

وليس هذا فحسب، لا، ولكننا سنكون قادرين على أن ندرك تحيزاتنا غير المرغوب فيها أو المبالغ فيها لبعض جوانب حضارتنا المختلفة، بل إننا سنكون قادرين على إدراك التحيز في مجمل الظواهر التي نواجهها في حياتنا اليومية، كما في ممارستنا البحثية.

المبحث الثالث

مفهوم التقدم في ضوء فقه التحيز

مقدمة

يشير المسيري، إلى أن مفهوم التقدم من المفاهيم الأساسية التي تلهج بها كل الألسنة، وصار هو هدف كل الناس: فالتحديث يتم من أجل التقدم، والتنمية تتم من أجله، والهدم والبناء والمشاريع والخطط والانقلابات كلها تتم باسم هذا الشيء السحري المسمى التقدم[٥١].

(٥٠) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٦٧).

(٥١) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٤٠).

مفهوم التقدم في الفكر الغربي:

تبلورت فكرة التقدم في أوروبا خلال القرن السابع عشر، أوروبا التنوير والإيمان بالعقل والتقدم المستمر للإنسانية، فقد آمن مفكرو الأنوار أمثال فولتير ومونتسكيو وكوندريسه وغيرهم، بفكرة التقدم ودافعوا عنها، وروّجوا للنزعة التي ترى الإنسان مركزًا للكون، ومهيمنًا عليه.

فقد اعتبر كوندريسه أن تاريخ البشر يسير نحو التقدم. ولإثبات هذه الفكرة، رصد أهم مراحل تطور الفكر البشري وتقدمه، وأجملها في تسعة مراحل. فالتقدم عنده «ضرورة»، أما التدهور والنكوص فهو«عرض»، بل إن التقدم يعبر عن قانون التاريخ نفسه، على حين أن التدهور يعبر عن الإلغاء المؤقت لهذا القانون. وهو يعتقد، أن إنسان المستقبل سيكون أقوى، وأسعد، وأكثر ذكاء من إنسان زمانه ... فالبشرية ستتحرر من كل القيود التي ترسف فيها، وتتغلب على كل العوامل التي تعوق التقدم، وتسير بخطًى ثابتة في طريق الحقيقة والفضيلة والسعادة[٥٢].

وجاء هيجل، من بعده، فاعتبر التقدم هو حقيقة الصيرورة، وأن حركة التاريخ هي حركة التحقق التدريجي للحرية واكتمال الفكرة المطلقة وتحققها النهائي. فالتاريخ، عند هيغل، يحقق فكرة المطلق في الزمان، كما تحققها الطبيعة في المكان[53].

وربط كانط مفهومَ التقدم بالعناية الإلهية، واعتبر أن التاريخ يسير سيرًا تقدُّميًا، والفلسفة السابقةُ تنسخ السابقةَ عبر مفهوم الاحتواء والتجاوز[٥٤]، كما اعتَبرت الفلسفة الماركسية أن التاريخ هو صيرورة تقدم أنماط الإنتاج المتعاقبة نحو تحقيق المجتمع الإنساني (الشيوعي) الذي هو غاية تقدم التاريخ.

فالحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة التي وافقت على مفهوم التقدم في حماس وأخذته شعارًا لها في كل شيء على وجه التقريب. والإنسان لا يستطيع إيقاف التقدم، لكن شروره بدأت في الظهور مع نهايات القرن التاسع عشر، حتى وصلنا للقرن العشرين الذي شهد

(53) http: //www.aljabriabed.net/ n56_11fouad.htm

(٥٢) السيد، محمد بدوي، **مخطط تاريخي لتقدم العقل البشري**، الهيئة العامة للكتاب، (١٩٩٥)، (ص/ ٢٦، ٤٨).

(٥٤) هيجل، **العقل في التاريخ**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، بيروت، دار التنوير، (٢٠٠٧)، (ص/ ٧٨- ٩٥).

الحـروب والنظـم التسـلطية مـن فاشـية ونازيـة، لنجـد أن نظريـة التقـدم بمكوناتهـا السـابقة، تدخـل مرحلـة المراجعـة النقديـة الجذريـة للمفهـوم[٥٥].

والإنسان لا يستطيع إيقاف التقدم، لكن شروره بدأت في الظهور مع نهايات القرن التاسع عشر، حتى وصلنا للقرن العشرين الذي شهد الحروب والنظم التسلطية من فاشية ونازية، لنجد أن نظرية التقدم بمكوناتها السابقة، تدخل مرحلة المراجعة النقدية الجذرية للمفهوم.

المسيري ومفهوم التقدم:

- حاول المسيري أن يطبق خطوات فقه التحيز على مفهوم التقدم الغربي كما يلي:

- **أولًا:** تنـاول المسـيري بدايـة مشـاعره وتوجهاتـه تِجـاه المفهـوم ومـا حفظـه وجدانـه، ومـا تكـوّن في عقلـه مـن تصـورات ماديـة عـن مفهـوم التقـدم منـذ الصغـر. فهـو يذكـر أنـه في صبـاه قـد طـور بعـض المـؤشرات الماديـة عـلى التقـدم، مـن أهمهـا: عـدد اللافتـات النيـون في دمنهـور، وعـدد السـيارات، ومـدى اسـتخدام البلاسـتيك، وبالتـالي كلـما زاد عـدد السـيارات، وظهـرت لافتـة نيـون جديـدة، كان قلبـه يـزداد فرحًـا وبهجـة[٥٦].

ويتذكـر المسـيري، واقعـة فاصلـة زعزعـت ثقتـه العميـاء في التقـدم المـادي، ومؤشراتـه المفترضـة، في سـياق حديثـه عـن أحـد أحلامه لمـصر مـع زميلـه الدكتـور عطيـة حامـد، وذكـر مـن بينهـا ميكنـة الزراعـة ... فقـال لـه الدكتـور عطيـة: إنـه لـو تـم إدخـال ميكنـة الزراعـة في مـصر لكانـت كارثـة؛ إذ إن البطالـة سـتتفشى بـين الملايـين ... هـذه الإجابـة كانـت طرحًـا لإشـكالية الطبيعـة (الـشيء/ الآلـة) والإنسـان، وأن الإنسـان هـو الغايـة النهائيـة، ولا يصـح اسـتخدامه وسـيلة. وقـد بقـي هـذا الحـوار في ذهنـه لـم يبرحـه ... ثـم كانـت رحلتـه لأمريـكا حيـث بـدأ ينتابـه شـك عميـق في مقولـة التقـدم، وأدرك أن التقـدم بمفهومـه الغـربي لـه تكلفتـه العاليـة وتحيـزه الفاضـح الـذي لا بـد مـن التخلـص منـه[٥٧].

---

(٥٥) عـزت، قـرني، **مفهـوم التقـدم، الموسـوعة الفلسـفية**، مرجـع سـابق، (١/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٥٦) عبـد الوهـاب، المسـيري، **إشـكالية التحيـز**، القاهـرة، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٤٠، ٤١).

(٥٧) عبـد الوهـاب، المسـيري، **رحلتـي الفكريـة: في البـذور والجـذور والثمـر**، القاهـرة، دار الـشروق، (٢٠٠٥م)، (ص/ ٢٦٢).

- **ثانيًا:** تحليل النموذج الغربي المرفوض للتقدم المتحيز للمادية، الصارف لكل أثر للمعاني الغيبية والأخلاقية الإيمانية عن المفهوم. لإظهار مدى قصوره سواء في تأكيد بعض العناصر على حساب العناصر الأخرى، أو في استبعاد عناصر في غاية الأهمية نظرًا لعدم اهتمام النموذج بها.

وقد قام المسيري بذلك عبر الخطوات التالية:

(أ) تتبع سيرة مفهوم التقدم في الغرب وتطوراته حتى عصر الحداثة السائلة:

وجد المسيري من واقع خبرته وتجربته ودراسته، أن مفهوم التقدم يحمل تحيزًا كاملًا للرؤية المادية، فهو ليس له غائية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقي محدد، بل هو مرجعية ذاته، وهو عملية لا نهائية، فنحن نتقدم لنحرز مزيدًا من التقدم، فهو ليس حتميًا وحسب، لكنَّه نهائي أيضًا.

فالتقدم، هو الركيزة الأساسية للمنظومة المعرفية (المادية) الغربية الحديثة، وهو الإجابة التي تقدمها على الأسئلة النهائية التي يواجهها الإنسان: من أنا؟ وما الهدف من الوجود في هذا الكون ... كما أن الحداثة الداروينية، جعلت أهم مؤشرات التقدم، تصاعد معدلات الاستهلاك، فهي تذهب إلى أن الخلاص يتم من خلال السلع، وليس من خلال تحقيق الإمكانيات الكامنة في الإنسان ... ويفصح التقدم عن وجهه المادي من خلال مجموعة من القيم الحاكمة الكبرى والنهائية لحياة الإنسان العلماني، مثل: «الصراع من أجل البقاء»، و«البقاء للأصلح والأقوى»، و«الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، والهجوم على أخلاق الضعفاء وتمجيد الإنسان الأقوى (السوبر مان) ... فترى العالم بأسره سوقًا ومصنعًا[٥٨].

> **فالتقدم، هو الركيزة الأساسية للمنظومة المعرفية (المادية) الغربية الحديثة، وهو الإجابة التي تقدمها على الأسئلة النهائية التي يواجهها الإنسان: من أنا؟ وما الهدف من الوجود في هذا الكون ...**

(ب) تشريح النموذج الغربي للتقدم، لمعرفة مكوناته وعناصره الأساسية بالإضافة إلى عناصره الثانوية ومنظومة المفاهيم المرتبطة به، حتى يتسنى لنا فهمه ونقده وتجاوزه.

---

(٥٨) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣١٤).

ويؤكد المسيري أن مفهوم التقدم يستند إلى منطلقات محددة، ويتسم بِسمات مادية واضحة هي[٥٩]:

(١) استناده إلى مفهوم الطبيعة/ المادة، فالتقدم مثل قوانين الطبيعة، عملية حتمية تتم رغم إرادة الأفراد وخارجها، ولا يمكن لأحد إيقافها.

(٢) الإيمان بالتقدم، يؤدي إلى الإيمان بحتمية التغير والصيرورة في كل المجالات، كحقيقة نهائية ومطلقة، ومن ثم يصبح الجديد بالضرورة إيجابيًا والقديم سلبيًا.

(٣) التقدم عملية عالمية خطية ذات اتجاه واحد تتم حسب قانون طبيعي واحد يتبدى في كل زمان ومكان وفي جميع المجتمعات وجميع المجالات حسب متتالية واحدة تقريبًا.

(٤) التقدم يفترض وجود تاريخ إنساني واحد، لا إنسانية مشتركة؛ لذا ما يصلح لتشكيلٍ حضاري وتاريخي يصلح لكل التشكيلات الأخرى «وحدة الوجود التاريخية».

(٥) التقدم يتم عبر مراحل تطورية متتالية مختلفة في بعض التفاصيل والأسباب، ولكن المراحل المختلفة تصل في نهاية الأمر إلى نفس الهدف وتحقق نفس الغايات.

(٦) المجتمعات الغربية، وخصوصًا غرب أوروبا، هي ذُروةُ هذه العملية التطورية العالمية الطبيعية، ومن ثم فهي النموذج الذي يُحتذى، ومن ثم يتحول الغرب إلى قيمة مطلقة يجب تبنيها، ونقطة مرجعية نهائية يجب أن نصل إليها أو على الأقل نقترب منها.

(٧) يستند التقدم إلى تصور أن المعرفة الإنسانية ستظل تتراكم بشكل مطَّرد.

(٨) مع تزايد التراكم ستزداد المعرفة، ومن ثم سيزداد تحكم الإنسان في بيئته.

(٩) الموارد الطبيعية في الكون غير محدودة.

(١٠) عقل الإنسان غير محدود، ولهذا فالغرب عادة ما يتحدث عن «التقدم اللا- نهائي».

(جـ) المراجعة والنقد للمفهوم لتجاوزه، وإبداع نموذجنا الأكثر تفسيرية لواقعنا.

يبدأ المسيري نقده للمفهوم ومراجعته من كون الخطاب التحليلي الغربي تجاهل البعد المعرفي في المفهوم، وطرح القضية

(٥٩) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، مرجع سابق، (ص/ ٣١٥).

على شكل: كيف نحقق التقدم؟ لكن لم يوضح إلى أين نتقدم؟ ولماذا؟ وكم الثمن المدفوع في هذا التقدم؟ لينطلق من هذه النقطة المعرفية لنقد المفهوم من مختلف جوانبه كما يلي[٦٠]:

(١) «التقدم» مفهوم غربي، نابع من تربة غربية، ومرتبط بمرحلة محددة في التاريخ الغربي، وليس له صلاحية وشرعية تتجاوز الزمان والمكان.

(٢) عملية التقدم، ليس لها غاية إنسانية محددة أو مضمون أخلاقي محدد، فالتقدم مجرد حركة أو عملية. والتقدم في المفهوم الغربي (المادي) عملية حركية تعني الانتقال (الترانسفير) دون تحديد الهدف من الحركة.

(٣) التقدم الغربي بلا مرجعية، أو هو مرجعية ذاته، أو الوسيلة التي تحولت إلى غاية، فنحن نتقدم لنحرز مزيدًا من التقدم (وهي عملية لا نهائية)؛ أي إن التقدم ليس حتميًا وحسب وإنَّما أيضًا نهائي.

(٤) الحركية ليست محايدة تمامًا ولا بريئة تمامًا، فثمة تحيز كامل للرؤية المادية كامن في مفهوم التقدم الغربي. ومعيار التقدم، في نهاية الأمر، هو زيادة المنفعة وتعظيم اللذة لأكبر عدد ممكن من البشر (الإنسان المادي) ... فالتقدم لا يكترث بالخصوصيات التقليدية (الدينية والإثنية والأخلاقية)، كما أن مقاييسه مادية، أما ما لا يقاس فيستبعد كمؤشر.

(٥) فكرة التقدم، باعتباره قانونًا عامًا طبيعيًا، والغرب باعتباره قمة التقدم تؤدي إلى تقبل مسلمة تفوق الغرب وعالميته وإطلاقه، ومسلمة معيارية النموذج الحضاري والمعرفي الغربي بحيث يصبح نموذجًا قياسيًا للبشرية جمعاء ... ويؤدي إلى إسقاط القيم والمثل والغايات والخبرة الغربية على العالم، وتعميم النظريات والمفاهيم الغربية في العلوم المختلفة دون الأخذ في الاعتبار خصوصيات كل مجتمع واختلاف الحضارات وإنكار التجارب الإنسانية، وإنكار أهمية الآخر والسعي إلى نفيه خارج إطار العلم والتاريخ ... وبالتدريج تستبطن كل الشعوب هذه النماذج الغربية، وتتبنى معايير النموذج الغربي للحكم على ذاتها.

(٦) التقدم، بحتميته ولا غائيته، مفهوم رجعي عنصري مادي معادٍ للإنسان والإنسانية، ينكر قدرة الإنسان على

(٦٠) عبد الوهاب، المسيري، **العالم من منظور غربي**، القاهرة، دار الهلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ١٤٤، ١٥٤).

التجاوز واتباع مسارات مختلفة في الزمان والمكان والهوية، والإمبريالية الغربية هي نتاج هذا المفهوم المدمر.

(٧) مفهوم التقدم، كمفهوم محوري في الفكر الغربي الحديث، تم تعريفه بشكل مادي أساسًا انطلاقًا من المفاهيم الغربية (الهيومانية) ومفاهيم المنفعة واللذة. فثمة تحيز للنموذج المادي كامن وراء مفهوم التقدم؛ ولذا نجد أن مؤشرات التقدم مادية: حجم الطرقات - مدى اتساعها - عدد الهواتف المستخدمة - معدلات الاستهلاك - شكل الرعاية الصحية ... وهذه معايير في جوهرها مادية، وقد أصبح أهم المعايير الآن هو معدلات الاستهلاك ... فالنظرة إلى التقدم أصبحت مادية، واستبعدت كل الأسئلة الإنسانية، فهي لا يمكن قياسها.

(٨) تبنّي «التقدم الغربي» معناه تبني استعارة، تُشبه الحركة التاريخية بالخط المستقيم، وتخلينا عن الأشكال الدائرية، كما أننا نكون قد أخذنا بفكرة التراكم الكمية، وأصدرنا حكمًا قِيَميًّا مسبقًا على القديم والجديد، بحيث يصبح الأول سلبيًا والثاني إيجابيًا، كما أننا نكون قد قبلنا بالتغير والصيرورة في كل المجالات كحقيقة نهائية وربما مطلقة.

(٩) التقدم يهدف إلى مراكمة الكم إلى ما لا نهاية، ويعتبر العالم حيز بلا تاريخ، ومادة بلا ضمير أو رُوح، ومجرد مجال تتحرك فيه التقنية ورأس المال والبضائع دون اكتراث بالأفراد، بصرف النظر عن غائية إنسانية مشتركة.

(١٠) كثير من المقولات التي يستند إليها مفهوم التقدم الغربي ليس لها سند في الواقع، فالموارد الطبيعية محدودة، وعقل الإنسان محدود، والتقدم ليس عملية خطية ذات اتجاه واحد، إذ كثيرًا ما يحدث انقطاع ونتائج سلبية غير مقصودة.

(١١) التقدم الاقتصادي عُرّف باعتباره «اللحاق بالغرب»، هو مفهوم يفترض الغرب كنقطة يجب أن نصل إليها، وكقيمة مطلقة يجب تبنيها. وتحاول المناهج التي تدور في هذا المفهوم أن تحدد التقدم والتخلف من هذا المنظور، فإن ازددنا اقترابًا من الغرب صرنا أكثر تقدمًا، وإن ازددنا ابتعادًا عنه صرنا أكثر تخلفًا.

(١٢) الإيمان غير النقدي بالتقدم يؤدي إلى نقل التكنولوجيا الغربية بشراهة غير عادية ودون فهم لارتباط التكنولوجيا بقيم وثقافة البيئة المنتِجة لها، ودون

إدراك أنها ليست مجرد آلات ومعدات، وإنَّما هي قدرة توليدية إبداعية لتعديل طرق الإنتاج وتحسين وسائل التعامل مع البيئة لإشباع الحاجات الإنسانية، ومن ثم غير قابلة للاستيراد ولا النقل إلا في حدود معينة وحسب شروط مختلفة.

(١٣) معظم المفاهيم المرتبطة بالتقدم، مثل: الناتج القومي الإجمالي، ورفع مستوى المعيشة، وتحسين مستوى الدخل... إلخ، مرتبطة بمفهوم التقدم والنموذج المعرفي المادي الغربي.

(١٤) التقدم يخفي مفهومًا كامنًا، هو مفهوم «التخلف الكوني في مقابل التقدم العلمي الصناعي»، فمنذ عصر النهضة والإنسان الغربي يتحدث عن التقدم العلمي والصناعي ويبين الثمرات التي يجنيها الإنسان من هذا التقدم ... ولكننا نعرف الآن أن هذا التقدم الصناعي يؤثر بشكل سلبي في الكون بأسره، وفي المصادر الطبيعية بطريقة لم تكن واضحة أو ملموسة في البداية، ولكنَّها أصبحت أمرًا معروفًا للجميع.

(هـ) إعادة البناء للمفهوم في ضوء المراجعة والخبرة المتعلقة بالممارسة في إطار التجربة التاريخية للمجتمع.

يؤكد المسيري أن تقبلنا مفهوم التقدم الغربي بكل تحيزاته ونواقصه، قد أغلق باب الاجتهاد فيه، وتحولنا من دارسين لهذا المفهوم ولغيره إلى مجرد ناقلين له ولغيره[٦١].

وقد حان الوقت لحساب ثمن التقدم، وملاحظة أن عائد التقدم محسوس ومباشر يمكن قياسه، أما ثمنه فهو غير محسوس وغير مباشر ولا يمكن قياسه. وملاحظة تداخل ثمرة التقدم مع ثمنه، تمامًا مثل تداخل ثمن التقاليد مع ثمرتها، ولذا لا بد من تغيير المؤشرات التي تقيس التقدم وجعلها أكثر اتساعًا، وتحويل الكيف إلى كم، أو على الأقل نرى الأثر الكمي للتحولات الكيفية.

ونرصد الظواهر الاجتماعية السلبية، مثل: المخدرات - الإباحية - التكاليف المادية لإنتاجها والتكاليف المعنوية لاستهلاكها - السلع التافهة التي لا تضيف إلى معرفة الإنسان ولا تعمق إحساسه - تآكل الأسرة - طريقة التعامل مع العجائز - الوقت الذي يمضيه الإنسان مع أطفاله وزوجته - تراجع التواصل بين الناس

(٦١) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٠).

بسبب الكمبيوتر - الأمراض النفسية - تزايد العنف والجريمة - انتشار الفلسفات العدمية وفلسفات العنف والقوة والصراع - تزايد الإحساس بعدم المقدرة على معرفة الواقع - تزايد الإحساس بالاغتراب والوحدة والغربة - تزايد الإنفاق على التسليح - ظهور إمكانية تدمير الكرة الأرضية - أثر السياحة وحركة التنقل على نسيج المجتمعات وعلى تراثها ... إلخ. لنرصد ولنحسب التكلفة المادية لهذه الظواهر السلبية مع تحويل المعنوي إلى مادي[٦٢].

وهذا الإدراك، لثمن التقدم في مقابل عائده، سيجعلنا نرفض هذا المفهوم، ونرفض الإذعان له كأمر واقع لا مجال للفكاك منه، ونفتح باب الاجتهاد فيه، ونفهم التقدم، وندرك أسسه المعرفية، وثمنه وثمرته. لنبدأ في بناء المفهوم بشكل مختلف يناسب بيئتنا الحضارية والمجتمعية.

وهو يحدد خطوات ذلك كما يلي:

(١) نسقط مفهوم التقدم المستمر واللا نهائي الغربي؛ لكون هذه الفكرة مدمرة، مبنية على أساس أن المصادر الطبيعية لا تنفد، وهي فكرة لا علاقة لها بالواقع، فمن المعروف أن هذه الموارد قابلة للنفاد. وذلك عبر تبني النموذج الحضاري العربي الإسلامي الذي يحاول أن يوسع من مفهوم التقدم، وجعل إنسانيتنا المشتركة هي محط اهتمامنا، دون رفض المقاييس المادية، ولكن، بشرط ألا تكون هي المقاييس الوحيدة التي يحكم بها على معدلات التقدم[٦٣].

وهذا الإدراك، لثمن التقدم في مقابل عائده، سيجعلنا نرفض هذا المفهوم، ونرفض الإذعان له كأمر واقع لا مجال للفكاك منه، ونفتح باب الاجتهاد فيه، ونفهم التقدم، وندرك أسسه المعرفية، وثمنه وثمرته. لنبدأ في بناء المفهوم بشكل مختلف يناسب بيئتنا الحضارية والمجتمعية.

(٢) الاستفادة من نظريات التنمية الغربية وآلياتها، ولكن بعد أن نضع هدفًا إنسانيًا للتنمية والتقدم، وبعد أن نعيد تعريفه وندركه من خلال منظوماتنا الأخلاقية، تعريفًا يتقبل فكرة التقدم وضرورته، ولكنَّه لا يسقط البعد الإنساني ولا

(٦٢) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٤٤).

(٦٣) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢١).

التراثي والأخلاقي، فهو يجعل الإنسان وتراثه وحاجاته هي المرجعية، وهو بذلك يكون قد أزاح الغرب كنقطة مرجعية، نهائية مطلقة[٦٤].

(٣) الاستفادة من المراجعات الغربية لمفهوم التقدم، مثل فكر جماعات الخضر، والنظريات الجديدة للتنمية التي تحدثت عن التنمية المطردة أو المستدامة التي لا ترهق المصادر الطبيعية ... والمدركة لثمن التقدم والتخلف الكوني، والتي تضع في حسابها الأجيال القادمة[٦٥].

(٤) فصل مفهوم التقدم عن الاستهلاكية، والبحث عن مؤشرات «للتقدم» أكثر إنسانية. عبر تحديد هيئة الأمم المتحدة حد الكفاية المطلوب للبشر، ليكون هدف المجتمعات الإنسانية والمجتمع الدولي هو تحقيق هذا الهدف، ويكون هذا ترجمة عملية لمفهوم الإنسانية المشتركة وللتراحم الإنساني (في مقابل التعاقد والفردية والمنافسة) [٦٦].

(٥) يستتبع ذلك، مع تراكم جهودنا البحثية، التخلي تمامًا عن مفهوم التقدم الغربي، وابتكار نموذجنا الجديد للتقدم، القائم على التوازن والعدل، الذي سيرصد أوضاعنا بطريقة أكثر تركيبًا، وسيكون أكثر موضوعية لأنَّه لا يحاكم الواقع (العربي) من منظورغريب (غربي)، وإنَّما يحاول رصده ووصفه بكل تركيبيته، كما أن مقدرته التفسيرية، ولا شك، ستكون أعلى بكثير من النموذج الغربي المرفوض للتقدم[٦٧].

(٦) إحلال مفهومي «التوازن» و«العدل» بدلًا من مفهوم«التقدم» في الإطار المادي هدفًا للوجود الإنساني. ففكرة التقدم اللا نهائي وتزايد معدلات الاستهلاك قد أدت إلى حالة من الصراع الحاد على المصادر الطبيعية خاصة الطاقة. وأن يكون الهدف هو التوازن مع الذات ومع الطبيعة، والعدل عبر تحقيق التوازن بين كل البشر[٦٨].

(٧) ابتكار مؤشرات جديدة لقياس التقدم مثل: السعادة والطمأنينة والتوازن، ووقت الفراغ الذي يتمتع به الإنسان، ويمارس فيه إنسانيته الكاملة، ومدى تحققهم باعتبارها

(٦٤) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٥٣).

(٦٥) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، مرجع سابق، (ص/ ٥٤).

(٦٦) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٦٧) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ١٣).

(٦٨) سوزان، حرفي، **حوارات الدكتور عبد الوهاب المسيري**، دمشق، دار الفكر، (٢٠٠٩م)، (١/ ٣٢٥، ٣٢٦).

مـن أهم معايـير ومؤشرات التقـدم[٦٩].

(هـ) عقد مقارنة بين القدرات التفسـيرية والتنبؤيـة للنموذجـين:

يؤكـد المسـيري أننـا حينـما نسـتخدم النموذجـين الغـربي والعـربي الإسـلامي لتقييم مـا حـدث في مدينـة عربيـة مثـلًا في العشرين سـنة الماضيـة، فإننـا سـنجد أن الباحـث الذي يتبنـى النمـوذج الغـربي سيسـأل عـن: كميـة البروتـين المسـتهلك، أو الطرقـات التـي تـم مدهـا، وعـدد السـاعات التي يسـافرها الفرد، ومعـدل إنتاجيته، ونوعيـة الخدمات الصحية، وهكـذا، دونمـا تركيـز عـلى الجوانـب غـير الماديـة الملازمـة لهذه المـؤشرات الماديـة، فهو نمـوذج اختـزالي يتجـه نحو اختـزال العـالم إلى عنـصر واحـد (مـادي).

في حـين أن الباحـث الـذي يتبنـى النموذج العـربي الإسـلامي، سيسـأل عـن: مدى تماسـك الأسرة (فتـآكل الأسرة، وهـو إحـدى النتائـج الحتميـة للتقـدم، لا يتـم رصدهـا)، كـما أنَّـه قـد يشـير إلى الأشـكال الفنيـة الشـعبية التـي تآكلـت، والـدور الـذي يلعبـه الديـن في إدخـال قـدر مـن التحـضر والإنسـانية عـلى المجتمـع. دون إهـمال لباقـي المـؤشرات الماديـة. مـمَّا يجعل النموذج العربي الإسـلامي أكـثر تفسـيرية وملائمـة لأجوائنـا الحضاريـة والمجتمعيـة[٧٠]، وهـو يعـبر عن نمـوذج مركب يرفـض الواحديـة (الماديـة)، وينطلـق مـن الإيمـان بـأن هنـاك ثنائيـة أساسـية في الكـون.

خاتمة

الآفاق التي يفتحها فقه التحيز والجهود التي يحتاجها ليصير فقهًا حقيقيًا

أولًا- الآفاق التي يفتحها فقه التحيز:

- يمكننـا أن نرصـد بعـض الآفـاق التـي يفتحهـا فقـه التحيـز في علومنـا الإنسـانية والاجتماعيـة وحياتنـا اليوميـة فيـما يـلي:

(١) فقـه التحيـز سيُسـهم في عمليـة بعـث الثقـة في نفـوس الباحثـين العـرب والمسـلمين، وإعـادة تكويـن العقـل المسـلم عـلى أسـس راسـخة. فعـبر تحويـل الغـرب مـن مركـز مطلـق إلى مجـرد تشـكيل حضاري ضمـن تشـكيلات أخـرى كثـيرة، سـننظر إليـه دون قلـق؛ إذ ليـس علينـا قبولـه بخـيره

(٦٩) عبـد الوهـاب، المسـيري، **العـالم مـن منظـور غـربي**، القاهـرة، دار الهـلال، (٢٠٠١م)، (ص/ ٢٣٠- ٢٣٢).

(٧٠) عبـد الوهـاب، المسـيري، **إشـكالية التحيـز**، القاهـرة، المعهـد العالمـي للفكـر الإسـلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ١٣).

وشره ... وإنَّما يمكننا دراسته كمتتالية حضارية تتسم بما تتسم به من سلبيات وإيجابيات، وسيمكننا الانفتاح الحقيقي عليه بطريقة نقدية إبداعية، تمامًا مثل انفتاحنا على الحضارات الأخرى، نأخذ ثمرات العلم الإنساني، بما في ذلك العلم الغربي، فنفصل العنصر أو الآلية التي تم نقلها عن المنظومة التي تنتمي إليها ثم نستوعبها في منظومتنا بعد أن نكيّفها مع قيمنا ورؤيتنا للكون[٧١].

(٢) فقه التحيز يؤكد أن مجرد نقد الاقترابات والمناهج ونتائج الدراسة عمليةٌ جزئية قليلة الجدوى طالما ظل البعد المعرفي الكلي، وإدراك أسسه ومنطلقاته الفلسفية موضع غموض أو تجاهل، فإدراك التحيز يُقصد به السعي لكشف ماهو ذاتي أو مخصوص أو نسبي أو إقليمي فيما تقرره علوم المجتمع والإنسان. وهو الأمر الذي إن تم أخذه بشكل جدي في دراساتنا، سيفتح آفاقًا واسعة لتوسيع هذا العلم، وتحقيق تراكم حقيقي لجعله علمًا له أسسه ومرتكزاته ومناهجه الجديدة في شتى مجالات حياتنا.

وسيمكننا الانفتاح الحقيقي عليه بطريقة نقدية إبداعية، تمامًا مثل انفتاحنا على الحضارات الأخرى، نأخذ ثمرات العلم الإنساني، بما في ذلك العلم الغربي، فنفصل العنصر أو الآلية التي تم نقلها عن المنظومة التي تنتمي إليها ثم نستوعبها في منظومتنا بعد أن نكيّفها مع قيمنا ورؤيتنا للكون.

(٤) فقه التحيز يفتح أفقًا جديدًا، ليس فقط في التعامل مع المصطلحات التي نستوردها، وتم سكها في العالم الغربي بعناية بالغة، ولكن أيضًا لنصطلح مع أنفسنا، ونتبنى مصطلحاتنا ومفاهيمنا. وسيفتح آفاقًا جديدة متجددة فيما يتعلق بحالة توليد مفاهيم ومصطلحات جديدة، عبر إعادة وصف الظواهر الأساسية ثم إعادة تسميتها.

(٥) فقه التحيز يفيدنا في فهم تحيزاتنا ضد بعضنا البعض كجماعة بحثية، وحكومات ومعارضات سياسية، وجماعات عرقية أو طائفية أو مِلَلٍ دينية، وكل هذا سيأتي بنتائج جديدة تمامًا في البحث والعمل.

(٦) فقه التحيز، سيحدث تغيرًا كاملًا في فهمنا للعملية البحثية والعلمية؛ ولذا تصبح المعرفة اجتهادًا مستمرًا، لا تحكّمًا

(٧١) عبد الوهاب، المسيري، **إشكالية التحيز**، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (١٩٩٥م)، (١/ ٦٧).

كاملًا في الواقع، كما توهمنا عبر تبني منطلقات النموذج الغربي، وليس هذا وحسب، بل سيؤدي إلى عدم اختزال الواقع أو تصفية الثنائيات التي يقوم عليها الوجود.

(٧) فقه التحيز، سيؤدي إلى مناهج جديدة للبحث، ولتناول تاريخ الأمة واجتماعها وسياستها واقتصادها وفنونها، وعلاقاتها الخارجية مع الحضارات والمجتمعات الأخرى، والعلاقات البينية بين دولها ومجتمعاتها وأديانها وأعراقها وطبقاتها، من منطلقات جديدة تنفي التحيز ضد الذات، أو التحيز للآخر دون نقد أو تقويم.

(٨) فقه التحيز سيسهم في تأسيس علوم إنسانية (وهيكل مصطلحي) نابع من حضارتنا، تكون مقدرتها التفسيرية أكبر من العلوم الإنسانية الغربية المتحيزة لسياقاتها ومشكلاتها الغربية.

(٩) فقه التحيز سيسهم في جعل منهج كشف آليات التحيز ممارسة مرئية للباحث والإنسان العربي المسلم، عبر خطواته التي تمكنه من رؤية عملية كشف التحيز وبناء النموذج البديل، فيكتسب رؤية حضارية نابعة من ذاته، مدركة لتحيزات الآخر، في ذات الوقت الذي يمتلك فيه منهجًا، يمده بالقواعد التي تكشف وتعري التحيز في المناهج والأدوات البحثية التي يستخدمها، والقيم التي يتبناها، والممارسات اليومية التي يعيشها، والمظاهر الحضارية التي تحيط به، والسياسات العامة التي تنهال عليه خططًا وبرامج وتطبيقات تمس مختلف جوانب حياته.

الجهود التي يحتاجها فقه التحيز ليصير فقهًا حقيقيًا:

اجتهد الدكتور المسيري، في البحث عن حلول لمشاكل أمته العربية المسلمة، ورابَطَ على ثغرٍ من أهم ثغور الأزمة التي تواجهها، وهو المتعلق بالأزمة المعرفية والمناهج اللازمة لحلها. وكان من ضمن أطروحاته تأسيس فقه التحيز كما عرضت له هذه الدراسة، باعتباره فاتحة اجتهاد حقيقي يبني النموذج المعرفي العربي الإسلامي، ويعيد النموذج المعرفي الغربي إلى حدوده المحلية التي سعى لجعلها كونية عالمية.

فالمسيري قد عرف مسيرة طويلة مع العلوم الاجتماعية الغربية ونموذجها المعرفي، ووقف على كثير من تحيزاتها، وهي خبرة يحتاج إليها كل من يرتاد مجال العلم الجديد، عبر فهم نقد المسيري للنموذج المعرفي الغربي دون الوقوع في قبضة هجاء الغرب، حتى يمكنه الإضافة لما اقترحه المسيري بدلًا من ترديد مقولاته دون الإتيان بجديد.

كما أننا بحاجة إلى جهود جماعية كثيرة ومتعمقة، تتبنى دراسات جزئية تفصيلية لمفاهيم كثيرة طالها التحيز الغربي في كافة مجالات العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لكشف مثالبها واستبدال بها مفاهيمَ أكثر تفسيرية عن أحوال الأمم والحضارات المختلفة، وأكثر نفعًا لأبناء آدم وجدوى عن المفاهيم الغربية التي أسهمت في جعل العالم جحيمًا لا يطاق لغالبية سكانه من الفقراء والمستعمرين والمظلومين.

ونحن بحاجة، أيضًا، إلى تعيين حدود هذا العلم، وما يستطيعه وما لا يستطيعه. واكتشاف قدراته المنهجية على بيان التحيز دون الوقوع في تضخيم الذات، ولن يتم ذلك دون تطبيقات للفقه المقترح المختلفة في المجالات الواسعة التي يقترحها المسيري؛ لأنَّها السبيل الآمن لاكتشاف قدرات هذا الفقه وكذلك ثغراته المعرفية ومن ثم تطويره.

كذلك، فإن تسمية هذا العلم «**فقهًا**» أمر يجعل مهام تطويره شاقة، مع سيادة المعنى التقليدي للفقه بين أغلبية المسلمين والمهتمين بالعلوم منهم، وخاصة أصحاب العلم الشرعي التقليديين والمنتقدين للفقه من المؤمنين بالنموذج المعرفي الغربي على حد سواء.

كما أن طموحنا لبناء فقه التحيز كما طرح المسيري، يكون له آلياته ومناهجه ومرجعيته، ويسترجع البعد الاجتهادي والاحتمالي والإبداعي للمعرفة، بعيدًا عن يقينية العلم ودقته وحياديته ونهائيته التي ميزت النموذج المعرفي الغربي، هو أمر يحتاج إلى تخطيط علمي مدروس تقوم عليه مؤسسات ذات موارد كبيرة، ويتفرغ له باحثون جادّون، حتى لا يضيع هذا الجهد إلى جهود صغيرة متناثرة لا توصلنا إلى ما نرجوه، خاصة أن بحوث المؤتمر الثاني للتحيز الذي عقد في العام (٢٠٠٧)، لم يجز منها للنشر إلا ثلاثة عشر بحثًا من أصل أكثر من ثمانين[٧٢]، ويعود هذا ضمن ما يعود إلى تباين وجهات النظر وتباين الاهتمامات المعرفية وغياب المنهجية المعرفية الواضحة للعلم المقترح بين الباحثين في هذا الفقه الجديد.

فما زالت ملامح هذا الفقه الجديد النظرية العامة لم تكتمل على الرغم من مرور أكثر من ثلاثة عقود على طرحه رغم وجود الإطار العام الذي طرحه المسيري، وهو تحدٍّ جدير بأن نقوم به اليوم، ونحن في أمسّ الحاجة للتشبث بهُويتنا في زمن التراجعات والانكسارات المستمرة للأمة.

---

(٧٢) **فقه التحيز، رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**، القاهرة، دار السلام، مجموعة مؤلفين، (٢٠١٦)، (ص/ ٧).